مقعد مدينة الغياب

بقلم

فاطمة أبو زيد

« الثانية عشر منتصف الليل.. أين أنا؟ ألا يفترض بي أن أكون في سريري الآن؟ ما الذي أتى بي إلى تلك المدينة المُظلِمة؟.. يا للعتمة! بالكاد تتلمس قَدميّ موضع خطواتهما.

آه ما هذا؟ الشوارع خالية تمامًا، والبيوت مهجورة؛ يبدو أنها لم تُسكن من فترة طويلة..

أنا لا أدري إن كنت أضعت مدينتي أم ضِعت بها.. لكن جّل ما أدركه الآن أن هذه المدينة لا تختلف كثيرًا عن مدينتي.. إلا أن مدينتي تكتظ بالبشر سواء القاطنين بها أو اللاجئين إليها...

يا للهول! تبدو الشوارع وكأنها خطوط مستقيمة بلا انبعاجات أو انحرافات كتلك التي نعرفها.

رغم أني تمنيت كثيرًا أن تكون شوارعنا كتلك.. إلا أن طول هذا الشارع جعلني أتراجع!

أعتقد أن هذا الطريق المستقيم شاق وإن وهب لنا الله مثله لن يسلكه أحد، أمثالنا لا يقدر على السير إلا بطرق ملتوية وكأننا خُلقنا من طين نفثت فيه الأفاعي.. رغم ذلك.. كان أهالينا ومُعلمينا وكل من ألقته الحياة صدفة أمامنا يقولون: «إن الطريق المستقيم يختصر

المسافات وأنه طريق يحبه الله ويرتضيه لـ عباده»..

أردت أن أتوقف عن السير قليلًا لألتقط بعض أنفاسي لكني أبصرت عن قرب قلعة ضخمة تُشبه تلك القلاع التي نراها في أفلام الخيال العلمي بالتلفاز.. أصابني الفزع بعض الشيء وأردت أن أعود لبداية الشارع الذي أتيت منه لكن عندما أدرت ظهري قاصدة العودة وجدت أن لا شيء ورائي، الشارع الذي كنت أسير فيه وبقية الشوارع التي كانت تلُفه من كل جانب كل ذلك أصبح مندثرًا.. لا أستطيع السيطرة على دقات قلبي التي تتسارع ولا أجد بشريًا واحدًا يخبرني أين أنا وما الذي يحدث معي بالضبط؟..

لم تدع هذه المدينة لي خيارات! الآن عليّ مواصلة السير من جديد، عليّ أن أقطع هذه الخطوات من أجل الوصول إلى باب تلك القلعة المُرعبة.

لا أدري ما الذي دفعني لأن أخطو هذه المسافة القصيرة وأنا ضاربة بنظري في باطن الأرض..! لقد زادني الأمر فزعًا فكلما تغادر قدمي موضعًا سريعًا ما يندثر.. بات الأمر مُخيفًا، أصبحت أشعر أنني أُقّاد إلى تلك القلعة وأن أحدًا ما يجذبني إليها..! حاولت أن أتخلص من تلك الأفكار لكنها لا تتوقف عن العبث بداخلي... رغم أن قدميّ توقفتا عن السير.. لقد وصلت.. ها هو الباب يبدو صغيرًا جدًّا رغم ضخامة البناء! ما هذا؟ إنه مفتوح! سرت الطمأنينة في نفسي قليلًا.. ربما سأجد أحدًا بالداخل وأسأله عن كل ما يختلج صدري..

الآن يجدر بي أن أطرق الباب بضع طرقات حتى ينتبه أحدهم لقدومي..

أعتقد أنه مضى وقت كافٍ ولم يجب أحدهم، ربما يكون هذا الشخص عجوزًا ثَقُل سمعه فلم يسمع صوت دقات الباب، أو ربما يكون مريضًا لا يستطيع النهوض من الفراش.. على أية حال.. الباب مفتوح ولا مفر من الدخول.. للأسف بمجرد أن دلفت انهار سقف توقعاتي فوق رأسي.. لا أحد هنا.. لا أحد ولا شيء حتى أن هذه القلعة الشاهقة الارتفاع لا تحوي سلالم! إنها فقط غرفة من أربعة جدران خالية من كل شيء إلا من مقعد قديم يتوسط أرضيتها! حاولت أن أتمالك أعصابي لكن صوت بكائي ارتفع رغمًا عني وصرت أصرخ كالمجنونة:

«فليساعدني أحد، أنقذوني من هنا يا عالم، سأموت وِحدة»!..

ظللت أكرر هذه العبارة أكثر من مرة، وكأنها ترنيمة أنشدها للجدران التي تحيط بي آملة أن أجد ردًا يخلصني مما أنا فيه، حتى إن كان هذا الرد صدى صوتي فسأرتضيه.. فجأة سمعت صوتًا يقول:

«أيتها الفتاة! كفاكِ صراخًا! ألا أستطيع العيش بهدوء!».

لم أتوقف كثيرًا عند ما قاله هذا الصوت، لقد انفرجت أساريري وكأنني نسيت ما لاقيته خلال هذه الرحلة من معاناة، وقُلت بانفعال:

«يا إلهي! عثرت أخيرًا على صوت يشاركني هذا الصمت... مرحبًا، أين أنت؟ أنا هنا بالأسفل».

«مرحبًا، أنا أيضًا بالأسفل».

بدأت أدور بعينيّ يمنى ويسرى لكنني لم أبصر أحدًا فقلت متعجبة:

« بالأسفل! لا أرى أحدًا».

« لست بشريًا انا المقعد».

أجبت برعب بدا في رجفة صوتي:

«المقعد! ماذا تعني؟».

بدأ المقعد الذي يتوسط الغرفة يتحرك صوبي حتى توقف أمامي مباشرة وسمعت صوتًا صادرًا منه يقول:

«مقعد مدينة الغياب! هذه القلعة خاصتي، وتلك المدينة مدينتي ولا يدخلها سوى الراغبون بالغياب».

بدا صعبًا عليّ استيعاب ما يجري لكنني لم أتمالك نفسي أن أُعقِب قائلة:

« الغياب بكل مرارته وأوجاعه مجرد مقعد في قلعة! كيف؟ ثم إنه لا أحد بالمدينة! أين الغائبون الذين تتحدث عنهم؟».

بدأ المقعد يتحرك عائدًا إلى موضعه وأخذ يهتز بعنف ثم قال:

« لست مُرًا ولا موجعًا، أنا فقط صُنع أيديكم! هجرتم حلاوة الوصل ورغبتم في عِلة تركنوا إليها إذا عجزتم! صنعتم مقعدًا تجلسون عليه وقتما شئتم! تركتم عِنفوان المواجهة وأفلتم قبضة المصير عنكم وجئتم إليّ.. لكن ما لم تدركه عقولكم أن للغياب لعنة لن ترحمكم! لعنة جعلت من كل غائب يقصد مدينتي بيتًا مهجورًا يشع ظُلمة! وأحطت تلك البيوت بشوارع مستقيمة مُمهدة حتى أستدرجكم إليّ، ومحوت أثر خطواتكم حتى تدركوا أنه لا عودة!».

زاد اهتزاز المقعد واستطرد مقهقهًا بصوت مرتفع:

«أنتم هنا للأبد.. فلتذوقوا وبال صُنعكم.. فلتذوقوا وبال صنعكم».

وقبل أن أسأله عن مصيري وما الذي أتى بي إليه؟ فجأة اختفى المقعد، وتحولت غرفة القلعة إلى غرفتي التي في بيتنا، وها أنا في فراشي ووالدتي تجلس على المقعد المجاور للفراش، و تبتسم لي قائلة:

«لقد عاد أخوكِ من العراق يا ليلى بعد طول غياب».

ثم مسحت بكفيها على شعري وخرجت... و ما أن سمعت صوت إغلاق الباب حتى نظرت إلى المقعد قائلة:

«يا مقعد مدينة الغياب! تعرف جيدًا أنك من صُنع الغائبين، ولا تعرف أن من يصدق الوعد منهم بالأ يعود إليك سيعود إلينا!».

* * *